

فارس كانت من أضخم الدول سلطاناً ، وأبعدها في الحكمة أعراقاً ، فله يصعب عليه منالها ، كما لم يعسر عليه غلب الروم في الشام ، وهم بمكان من المدينة لا يرام . ولست أقول إلا أنه لما نشأ الاسلام كانت القياصرة في ضعف وانحلال ، وكان الفرس يمزقهم ظلمُ العمال . فكان ذلك داعياً إلى انتزاع ملكهم ، ولم ينل الاسلام اخفاق في عهد الخلائف الأولين وهم بمكانهم من صلاح الرأي وحكمة السياسة . فلم تهزم للاسلام راية في أيامهم ، إلى أن ذهبت الخلافة من بيت علي عليه السلام فذهبت سداجة الملة ، واتقلب أمر الأمة من الخلافة إلى المُلْك ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تصير ملكاً عَضُوضاً) والله في خلقه شئون ، وهو يقدر الليل والنهار .

وكان الفراغ من تقييد هذه الرسالة في أول يوم من رجب من السنة السابعة والحسين بعد المائة من الهجرة النبوية المشرفة على صاحبها أشرف السلام وأزكى التحية .

لِقَائِي وَوَلِيَّ الْعَهْدِ وَحِظُوتِي لَدَيْهِ

هذا كتاب إليك أبدأ فيه بذكر لقائي ووليَّ العهد ، فإننا في بعض الأيام ، ونحن جلوس إلى فقيه الاسلام ، إذ دخل علينا البيت خادم من خدم الخليفة فتخوَّف الفقيه من شيء لم أدر ماهو ، وكذلك الناس يفشاهم الخوف والانتباض كلما دخل عليهم خادم الخليفة على غير موعد ، ^(١) فقال له أبو يوسف سبق وهى إلى أنك تطلبني لأمر جَلَل ، قال أَجَلْ إن الأمير

(١) هو أمر معروف في الحكايات وكتب التاريخ

يدعوك الساعة إليه لأمر ألقه الليل كله ، ولم يجر في خاطر أحد من العلماء التصرف في وجه يكون به كشف الغمة وتحقيق المسئول ، فدعا خالد بن برمك إليه فقال له عليك بتلاميذ أبي حنيفة وما فيهم أحفظ لعله من أبي يوسف^(١)

فلما سمع ذلك طابت نفسه وذهب ما كان يجده من الخوف ، ولم يلبث أن استوضح هذا الخادم الخبر فأعلمه أن الأمير حنق على الخيزران أم أولاده ليلاً ، وقال لها في سورة الغضب أنت طالق ثلاثاً إن بت الليلة في مملكة أبي ، فلما سكن غضبه ووجدها برآء من التهمة راعه أمر الطلاق فاستدعى الأعيان والفقهاء فلم يكن عندهم ما يرجوه من الافتاء الذي يطيب به نفساً ، ففكر أبو يوسف برُهة فلم يفتح الله عليه بشيء .

وكنت في ذلك الوقت أجبل الفكرة في أمر الخيزران وأذكر ما أثرها في الدولة وذلك المسجد الذي زينته به الزوراء ، فوقع في نفسى ما يكشف هذه المهمة ، فقلت لأبي يوسف إن المساجد يوت عبادة الله تعالى ، ولا تدخل في ملك أحد ، فلوبات الأمير فيها الليلة ما حسبت بيت في مملكة أبيه ، فما كدت أنتهى من كلامي حتى كاد ينخلع من ثيابه لشدة الفرح ، وهو يقول لقد ظننت والله أن أعمال الفكرة في مثل هذا التخلص الجميل . جهد من غير تحصيل . وعناء للنفس ليس له من سبيل . فأما إذ ابتدعت هذا الرأي الميمون فعلى عهد الله لا ذكرك عند الأمير ليقربك إليه بما أنت أهله من الخير ، ثم خرج وأنا أحسب للأمير مسرة عظيمة مما زرقني الحظ استنباطه ليكون في حل من يمينه ومبرة له من قسمه .

فلم تكن إلا ساعة حتى عاد إلى نصير ذلك الحاجب قائلًا^(١) أجب الأمير، فقامت لساعتي أمثل الأمر، فلما صرت في باب الدار وجدت جماعة من العلمان قد أعدوا لي بغلة فارهة من مطايا الأمير مجلّة بالديباج، عليها حلية من الفضة، فركبت وسار العلمان بين يدي حتى وصلنا إلى دور الخلافة، وقد كان أخبرني نصير عما جرى بين الأمير وأبي يوسف من الحديث، وأنه لما مثل بين يديه كاد يعدل عن استقبائنه ظنًا منه أن لا يكون من فتواه جدوى، « والخلفاء وأولادهم يبدءون الناس بالكلام وليس للناس أن يفتحوه معهم »،^(٢) فلما استطلعه رأيه فيما أهمه من الأمر وذكر له الرأي الذي تقدمت به إليه غلب عليه السرور حتى ما كاد يستقر به المجلس من القيام والعود، ثم سأله أمن معقوله ذلك أم من منقوله؟ فقال له أبو يوسف لا والله وإنما قائل هذا صديق لي من أبناء الفرس وأخذ يذكرني عنده بما استطاع من جميل الكلام.

فلما أقبلنا على دور الخلافة جزنا باب السور الكبير وسلكنا ممرًا مفروشًا بالحصباء الحمراء تحيط به حدائق القصر وجنان قد اتخذ فيها أحواض يتصعد منها الماء وعليها عمد من الرخام تُقل قبابًا مُغشاة بالرسوم الموسومة بماء الذهب. ورأينا في طرف هذه الجنان صناعًا يرفعون^(٣) قصرًا سماه أبو جعفر قصر الخلد^(٤) وأضافه إلى قصر السلام^(٥) الذي يسكنه في هذه الأيام، فانهيننا من هذا الممر إلى باب القصر، وهو معقود

(١) ذكره الأغاني ٣: ٥٧ والعقد الفريد ٢: ٩٩ (٢) ابن خلكان ١: ٣١

(٣) الأغاني وابن الاثير ٦: ٥ (٤) القزويني ٢١٠ (٥) الأغاني ٩: ٤٥ والسيوطي.

تحت القبة التي كانت مزينة في عيد الفطر، وهي علم الزوراء ومأثرة بني العبار، فلما جاوزناه انتهينا إلى دار مسورة بالعمد وبها مقاصير منجدة أرضها وحيطانها بالأرمني،^(١) وفي أطرافها دهليز ينبعث إليه الضوء من شمسيات قد اتخذت في قباب بديعة الشكل حافلة الزينة، فجزناه فإذا نحن في دار أفسح من الدار الأولى، ولها باب عليه مسامير من الفضة والذهب،^(٢) وفيها كثير من العمد التي يوجه الخلفاء عنايتهم إلى ترتيبها بالرسوم والأكثر منها فيما يبنون من القصور، حتى إنى عدت في صحن من صحن دور الخلافة سبعمائة وأربعين سارية لو أن ثمانين غلاماً وقفوا وراءها ماراًم من هو في صدر الدار.

ثم انتهينا من هذا الدهليز إلى سلم من الرخام ينتهي بالراقى^(٣) عليه إلى مجلس الأمير، وناهيك به مجلساً قد فرش بالرخام المجزع، وبين كل رخامة قضيب من الذهب يشد بعضها إلى بعض،^(٤) وقد اتخذ فرشه من الديباج والبسط الطبرية^(٥) عليها آيات^(٦) في مدح الأمير، وفيه كراسي مرصعة بأصداف اللؤلؤ وعليها جماعة من الأعيان خاقون كأن على رؤوسهم الطير،^(٧) وفي صدرهم الأمير جالساً في قبة قد اتخذ لها فرش مبطن بأنواع الحرير والديباج المنسوج بالذهب والإبريسم^(٨) وإذا به أسمر طويل القامة معتدل الخلق مليح الشكل جمع الشعر، بعينه اليمنى نكتة يابض، وعلى

(١) الأغاني ١٧٣٥ والالتلیدی ٢٢٦ (٢) الالئلدی ١٤٦ (٣) فی الأغانی ٦ : ٧٨ ما یبشیر الی أن تصور الخلافة طبقة فوق طبقة (٤) الأغانی ٥ : ١٦٦ (٥) المسعودی ٢ : ٨٢ والأغانی ٥ : ٥٩ و ١٢٨ (٦) الکتابه علی البسط مذکوره فی الأغانی ٥ : ٨٦ (٧) الفخری ٥ (٨) المسعودی ١ : ٢٣٤

رأسه خصي واقف بالمِظَلَّة ، وهو من الخدام المقربين إلى السلطان وأهل بيته ومن يستميلهم الناس بالمال الكثير ائذ كروم عنده أو يخاطبوه في حاجتهم .

فلما أقبلت على المجلس غلبنى البهر من جلالة المهديّ فسلمت عليه بالامارة فردّ عليّ السلام بمخفض الجناح ، وأظهر ما حسب لي عليه من المنّة ، وقال لي إنه يأنس بي ويحب أن يصير إليّ تأديب ولديه موسى وهارون ليما بلغه عنى من العقل ، فدنوت من كرسیه وقبلت الأرض بين يديه وقلت له في موقف الشكر على جزيل ما أولانى من النعمة إنك قد جعلت لي بهذا شرفاً لم ينله أحد قبلى من العلماء ، فقال لي أحسن الله عنا جزاءك ، فأ الكثير من فعلنا بك بجزاءٍ للسير من حقك ،^(١) ثم إنه دعا أبان بن صدقة كاتبه فوقف بين يديه ،^(٢) فقال له اكتب له بدارنا على دجلة ، وأقطعه من ضياعنا الخاصة ما تقيمه غلته على السعة ، ثم أمر لأبى يوسف بخمسين ألف درهم معجّلة ،^(٣) وكان هذا أول اتصالى بولى العهد أصلحه الله وتولى عنى مكافأته بما هو واسع من الجميل .

في تأديبى الأُميرين وما توالى علىّ من نعمة بنى العباس

ولما اتصل هذا الخبر بالخيزران وقد كانت في دارها تسمى باساس^(٤) عادت إلى دور الخلافة في موكب عظيم من العُلَمان المزيّنة والخليل عليها القطوع من الديباج والحليّة الثقيلة من الفضة حتى تظهر ما عندها من الأبهة

(١) الأغانى ٩ : ٣٠ (٢) المسعودى ٢ : ١٨٢ (٣) الأغانى ٣ : ٩٥

(٤) المسعودى ٢ : ١٩٦

مع تقرير موضعها من السلطان . وأقام الأمير في ذلك اليوم مأدبة صرف في زخرفتها وسعته ، وجلس فيها لعطاء قريش^(١) وسائر الناس حتى امتلأت المدينة بأسباب المسرة والأفراح ، ثم جاءني من لدن الأمير من ينطلق بي إلى الدار التي وهبها لي على دجلة ، فاذا هي مشيدة على أساطين رفيعة وحنايا مقوسة وقباب محرمة ، ولها روضان^(٢) بديع الحسن يشرف على دجلة وما وراءها من الرصافة ، وفيها من السدول والأستار الحربية والبسط الديباجية والقمامة النحاسية والآنية المزخرفة والخزائن^(٣) المجرعة ما ليس مثله إلا في أمتعة الملوك وجلساتهم مما^(٤) يتكرمون به عليهم في سبيل الهبات ، حتى لقد كانت الأوتاد التي تدق بجانب الباب ليعلق فيها الداخل^(٥) ما ثقل عليه من ثيابه متخذة من العاج الأصفر وعليها رسوم منزلة بالذهب تمثل ثماراً تجتنى بالأبصار لحسنها ولقرط ما أبدع فيها المثل من الصناعة .

ثم جاءني من لدن الخيزران خادمان للمهدى لم تكن نوبتهما^(٦) في ذلك اليوم بملازمة بابه ، ووضعنا بين يدي إنائين من الذهب في أحدهما منشور^(٧) بضئعة في السواد وفي الآخر مخنقة في وسطها درة عن يمينها ويسارها أربع يواقيت وأربع زمردات بينها كثير من شذور الذهب^(٨) ، ثم جاءني وصيف آخر للمهدى أكرمه الله يحمل إلى رُقعة بالضئعة التي سبق لي بها العطاء وهي في السواد من جوار الحيرة يقال لها العمرية^(٩) ،

-
- (١) الأغاني ٧ : ٩ (٢) الأغاني ٥ : ١٠ (٣) الأغاني ٥ : ١٠٩
(٤) الأغاني ٥ : ٤٠ (٥) الأغاني ٤ : ٥٢ (٦) الأغاني ٣ : ١٨٤
(٧) المستطرف ١ : ٢٤٣ (٨) الأغاني ٧ : ٣٦ (٩) ذكرها الأغاني ٩ : ١٠٣

ثم بعده وصيف لأم المهدي وهي بنت منصور الحميرية ومعه إباء من ذهب قد انتثرت عليه اللآلئ،^(١) ثم وفد للغالية أخته ومعهم جام^(٢) فيه دنائير وخاتم من العقيق قد رُسِمَت فيه أم القرآن ولكن بأحرف صغيرة لا تبصرها العيون وذلك أحسبه من محاسن الأشياء التي لا تكون إلا عند الملوك، فهطلت على النعمة غيثاً من الذهب، وليس ذلك إلا لأني وجدت منصرفاً في القول لحل تلك اليمين.

وأخذت من ذلك اليوم في تأديب الأميرين موسى وهرون بما أحب أبوهما وأوصاني به يحيى بن خالد وزيرنا، ولكن كنت إلى الصغير أميل مني إلى الكبير لما وجدت من انصبابه على المطالعة^(٣) واعتباره بأقوال الحكماء، ووددت أن يكون هو السابق في الولادة لتكون له حقوق الولاية قبل أخيه لما هو جدير به من تعمیر البلاد. وتقويم العباد. لأني رأيت الكبير صعب المرام شكس الأخلاق، وقد عرفت ذلك ذات يوم من أمر لم يتدبر معناه فلما استطلعت فيه رأيه حرد على وطار طائرُه من الغيظ، فحفظت له ذلك وأخذت أشغله من العلم السهل بما لا يحتاج إلى كبير مطالعة ولا إلى تكلف عناية به، فسُرَّ لذلك وأوسعني عما بدر منه في وقت الحدة اعتذاراً، فعرفت من ذلك أنه صعب المرام^(٤) وأن من توقعه وعرف أخلاقه دخل في رضاه، ومن فتح فاه فاتفق له أن يفتحه بغير مايهواه أطرحه وأقصاه،^(٥) وهذا كما ترى خلُق غير محمود في أولاد الملوك الذين يتجافون عن الحكماء والوعاظ إلى تقريب من يداهنهم بالثناء على ما ليس فيهم

(١) ١٣٣: ٦ (٢) ابن خلكان ٢: ٤٥٥ (٣) الفخرى ٢٣٠

(٤) المسعودي ٢: ٢٠٢ (٥) الأغاني ١٦: ٥

من الخلال ، فان ذلك دليل واضح على بعد الحزم منهم وضعف البصيرة عندهم -
أمّا هرون رعاه الله فاني عرفت فيه من الرقة واللطافة وسجية الحلم
ما أعظم في عيني منزله ، ولم أرفى أولاد الملوك أجمل منه خلقاً وخلقاً ،
وفيه مماثلة للفضل بن يحيى بن خالد في الصورة ، وهما في سنّ واحدة
ونشأة واحدة ، حتى إنهما تبادلوا لبن الرضاعة من ثدى واحد^(١) فكانت
أم الفضل تُرضع هرون والخيزران تُرضع الفضل ، وهو أبيض^(٢) اللون
واسع العينين على الجبهة منطو على خير وصلاح وسلامة قلب ، وإذا تألم من
أمر لم يستفزّه الغضب ولا يزيد على هاه هاه^(٣) كلمة غيظٍ واحدة ، وأنا
أتشرف بتأديبه^(٤) إلى هذا اليوم وهو سنة ثمان وخمسين بعد المائة ، وقد أتى
عليه من العمر أربعة عشر عاماً أصلحه الله ووقفه إلى مابه من صلاح الملة
والدولة بمن الله وكرمه .

ولست أكنم عنك أنه لما صارت إلىّ نعمة بنى العباس تحدّث الناس

(١) ابن الأثير ٦ : ٣٩ ، وأبو الفدا ٢ : ٥ وفي الفخرى ان من بعض ما قيل في

مديح الفضل بن يحيى قولهم

كفى لك غفراً أن أكرم حرة غذتك بثدى والخليفة واحد

(٢) العقد الفريد ٣ : ٥٤ والخيس ٢ : ٣٣١ (٣) الأغاني ٥ : ٦٦ (٤) قال
ن مروج الذهب انه لما أسلم المهدي ولديه الهادي والرشيد الى المؤدب أوعز اليه أن
يصير يده عليهما مبسوطة وطاعته منهما واجبة وأن يقرئهما القرآن ويعرفهما الآثار .
• رويهما الأشعار . ويعلمهما السنن ويبين لهما فضل الحكماء في مواظبهم ويبصرهما
بمواقع الكلام ويمنعهما الضحك الا في أوقاته ويأخذها بتعظيم الأمراء من بنى هاشم
ورفع مجالس القواد وألا تمر به ساعة الا وهو يغتم فيها فائدة يفيدها إياها من غير أن
يقسو عليهما فيميت ذهنهما ولا يتوسع في مساحتها فيستحليا الفراغ ويألفاه وأن
يقومهما ما استطاع بالقرب والملاية فان أياها فعليه بالشدة والغلظة .

بها كثيراً في الحضرة ، وأحدثت في النفوس غُصصاً يُثيرها الإشفاق على دولتهم من المهديّ أن يجري على سنة أبيه في تقديم الأعراب عليهم في المراتب إلى أن تخلو منهم مناصب الدولة ، غير أن ما يخافونه من هذا الأمر لا يتعدى إلى غير مصلحتهم الخاصة ، فإنما يعظم الإسلام بانضمامنا وجميع المسلمين إليه في غرض واحد حتى تشتدّ صولته وتروج فيه سوق الأدب بما يوجد له العجم من فوائد العلم ومحاسن الصناعة ، ولو أن الخليفة لم يقدمنا لهذه الناية لم يكن له مع ماسبق من خوفه من الأمويين إلا أن يتجافى عن العرب ويقصّهم عن المراتب إلى أن ترسخ في قبائلهم دولته من غير حاجة إلى قتل المسلمين بالمسلمين في فتن صعب لا يرجوها بلوغ أمنيته ، وإنما رُزق من السياسة الحكمة في تقديم الأعراب واستمالتهم إلى غرضه حتى يستظهر بهم على تقويم ملكه بما يُظهر من الجبروت الذي لا يلتبس في تمكين مهابته من المخالفين له سواء ، كدأبه في الاقطاع عن اللهو ،^(١) وبعده من البهرجة التي تبعده عن شعائر الملة ، وتوجّسه من الناس ريبة يهتم فيها كثيراً من أهل بيته أنفسهم ، وتجافيه عن الجلّاس والنُدماء إلا خلف ستارة يضربها فيما بينه وبينهم على بعد أربعين ذراعاً^(٢) إلى أمور غيرها تدل على أن مثله في التيقظ مثل الذين يستقلون بالملك على غير استرضاء الناس ، ثم يمرُّ بهم زماهم في أشد ما يكون من الخوف والريبة .

(١) الخيس والعقد الفريد وابن الأثير ٦ : ٨ والفخرى ١٨٧

(٢) السيوطي

بقية من أخبار أبي جعفر

وقد عرفت بترددى إلى دور الخلافة كثيراً من أخبار أبى جعفر وسياسته فوجدته ينظر^(١) فى أحكام الدولة وأمور العمال دون أن يدع لنفسه فرصة يستريح فيها من عناء الأعمال ، فإذا طلع النهار جلس فى إيوانه ونظر فى حال الأمة وعزل الولاة الذين يربيه منهم مخالفته، ونصب^(٢) من يعرف فيه الأمانة وتظهر منه النجابة والفظانة مكانهم ، لا يزال آخذاً فى ذلك بما يروم من إذلال المخالفين له إلى قبيل الظهر، فإذا تناول الغداء عاد إلى النظر فى المصالح والاهتمام بأمر الجند ، فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته وفاوض أعمامه وغيرهم ، فإذا صلى العشاء نظر فى كتب العمال مما تجمع فى النهار وشاور^(٣) من يركن إليه من سُمّاره ، تلك عادته من يوم ولّى الخلافة . وإن تذكر رعاك الله ما وصفته لك من نحوه فى الرسالة السالفة ثم تُضيف إلى ذلك ما أنا ذاكر لك من سهره على تدبير المملكة تتمثل لك صورته بما هو مطبوع فيها من آثار المجاهدة العظيمة التى أفنى فيها عمره وطال منها عناؤه ، فإن أيامه قد انتقضت بين مخالفة الأمة له والتيار الجند عليه حتى اقتضت الحال أن يوجد الفرقة فيهم بين مضر وربيعة والخراسانية^(٤) ليملك بعضهم بالذى هو واجد على الآخرين ، فترى أن ما لقي من تصاريق الزمان هو الذى جعله على سوء ظن بالرعية ، فهو لا يركن فى أموره إلا إلى وزيرنا خالد أعزه الله ، ولولاه ما استوى له الملك بين

(١) ابن الأثير ٦ : ١٠٠ (٢) الماوردى ١٣٧ (٣) المسعودى ٢ : ١٨٤

(٤) ابن الأثير ٥ : ٢٣٩

تغلب الأكراد^(١) في فارس وظهور الخوارج فيما إليها من البلدان .
وقد علمت مما تقدم إليك من الكلام أن البرامكة يميلون بطبعهم
مع أولاد علي عليه السلام ، فلما بعد خالد عن الحضرة لحرب الأكراد^(٢)
تمادى أبو جعفر مع وزيره أبي أيوب المورياني^(٣) في سياسته مع أهل البيت
من القتل والعنف ، وجاء بالنفس الزكية وأخيه إبراهيم وقتلها على خنق
كثير من أهل بيته عليه ، ولا سيما عمه عبد الله الذي غلب بنى أمية في
الشام ، فانه لما أحس منه الانحراف أسكنه في قصر بني أساسه على الملح
حتى إذا دجا الليل أرسل الماء حوله فذاب الملح وسقط البيت عليه ،^(٤) وهذا
من الأمور التي يتناقلها الناس عنه بسوء الأحدثمة كما يتناقلون ذكر قتله
لأبي مسلم داعية الامامية في خراسان ، وكلاهما من القواد الذين غلبوا
الأمويين وأقاموا ملكة في فارس فالعراق فخراسان فابن المسجد الأقصى
إلى البلد الحرام . ولقد فاوضت أبا يوسف يوماً في هذا الشأن فحدثني عن
جبروت أبي جعفر وأخبرني أن سلامة أمه لما حملت به رأت في منامها كأن
سبعاً زار فأقبلت عليه السباع من كل ناحية ، وكلما انتهى إليه سبغ سجد له^(٥)
فصح تعبير منامها بما يراد من معنى الملك والظفر

ولقد دخلت على أبي جعفر مرة واحدة بعد رجوعه من الحيرة وهي
المدينة التي يقصدها^(٦) حين يشتد عليه الحر في الزوراء ، إذ ليس في جوارها

(١) ابن خلكان ١ : ١٤٩ (٢) ابن الأثير ٥ : ٢٣٦ و ٦ : ٦

(٣) المسعودي ٢ : ١٨٢ (٤) الفخرى ١٩٨ وابن الأثير ٥ : ٢٣٥ والمستطرف

١ : ٩٦ (٥) المسعودي (٦) وفي ابن الأثير ٦ : ٥٥ أن الرشيد سكنها أيضاً

برهة من الزمان

ما يصلح لسكنى الملوك غيرهما^(١) فلما أذن للناس بالدخول عليه صحبت لسان الشريعة أبا يوسف فأصنناه في مجلس الأمراء وفيهم شاعر مقرب إليه يقال له أبو دُلّامة ، وهو يدينه ويضحك منه على يبتين من الشعر^(٢) قالهما في استهجان الزيّ الذي عمّ استعماله في لباس الخواص والعوام كما تقدم ، كأنهم في كتابة الآية بين أكتافهم ينبذون كتاب الله وراء ظهورهم^(٣) فلما أدّينا فروض السلام أمرنا بالجلوس ، وقال لي بعد أن قننا بالواجب من إجلاله إني رأيتم « يريد الفرس » أهل وفاء^(٤) وفطانة فوليتكم المناصب في دولتنا ، ولم أرني مروان قد انتبهوا لذلك ولا تكلفوا العناية في تجميل الدولة باتضاعهم من آداب العجم ، فقد كان عبد الملك جباراً لا يبالي بما يصنع ، وكان سليمان همّه بطنه ، ثم أفضى أمرهم إلى أولادهم المترفين فكان همهم الشهوات وركوب الملازم من معاصي الله عز وجل جهلا منهم باستدراجه وأمنامهم لمكره مع اطراحهم صيانة الخلافة واستخفافهم بحق الرياسة .

فلما ذكر ذلك عنهم جعل يضرب الأرض بمخصرة كانت في يده ، أوقع على بني أمية ممن حضر المجلس قذف شديد يرومون به موافقة فسلطان ، وقالوا إنهم كانوا يعاقرون الحمر ويظلمون العباد حقوقهم ويستحلون الخد أموالهم بغير استحقاق ويكلفون أهل القرى إذا خرجوا إلى الصيد

(١) الأغانى ٢ : ١٢٥ (٢) البتان هما قوله

وكنا نرجى من امام زيادة فجاد بطول زاده في القلائس

تراها على هام الرجال كأنها دنان يهود جللت بالبرانس

(٣) العقد الفريد ١ : ٩٨ (٤) ابن الاثير ٦ : ١٢

ما لا طاقة لهم به من الضرب والاهانة، ولا يقنعهم ذلك حتى يحطّموا
زرعهم في طلب دُرّاج قيمته نصفُ درهم ، ثم اتقل بعضهم من هذا
القذْف إلى أن يحثّ الخليفة على تتبع الهارين منهم في جميع الوجوه ،
وسمعت من أنشده هذين البيتين المشهورين الذين قالهما سديف لأبي
العباس لما تمّ له الغلب عليهم .

لا يفرنك ماترى من رجال إن تحت الضلوع داء دويّا
فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويّا
فامتلاً وجه الخليفة غضباً وقال لعمرى إن الأمويين أهل مظالم قد
غمطوا النعمة فهوى نجمهم وثلّ عرشهم ولله فيهم^(١) تقمة سأتبعها فيهم
حيث لقيت منهم عاتياً ، فمجبت من مظاهرتة بهذا الكلام وبين يديه
كثير من الذين يتقربون إليه بالتدليس والمحال . وأنا لأقول إن الأمويين
منزهون عن هذا الطعن ولا عن أشدّ منه ولكنى أرى أنهم لو لم يكونوا
حقيقين بمثله لرامهم كثير من هؤلاء الجلاس بأنكى منه تقرباً من السلطان
فيما يجب من القدح في أعدائه ، وكان ذلك أول ما لقيت أبا جعفر ، ثم لم
أره بعد ذلك لأنه ركب^(٢) إلى مواطن الحج المباركة شرفها الله
بكرمه وإحسانه .

(١) ابن الاثير ٥ : ١٦٧ والقزوينى ١٦ (٢) ابن الاثير ٦ : ١٦

في ركوب الخليفة إلى الحج

كان لخروج الخليفة الى الموسم موكب لم يرَ أحفلُ منه في مواكب الملوك ، فقد أقبل أهل المدينة الى باب الكوفة^(١) حيث اجتمع من النافرين إلى الحج الشريف من العراقيين والحُرَّاسانيين والفرس وغيرهم ما لا يُحصى عدده إلا الله ، وكلُّهم مجهزٌ بالله وكُسوته وقربه وخُرُمِيَّة وطعامه وهو الأخبضة اليابسة والأقراص المعجونة باللبن والسكر والكعك المنضد والفواكه اليابسة وغيرها من طعام الحاج ،^(٢) ومعهم قطعة من الجند تحوطهم^(٣) في تزولهم وارتحالهم ، وفي طليعتهم هودجٌ تظللها قباب من الديباج المطرز بالذهب ،^(٤) وفيها يقيم الأمير المولى على الحُجاج ، وله في إمارته النظرُ في أمور عشرة وهي أن يجمع الحُجاج في مسيرهم وتزولهم حتى لا يتفرقوا فيخاف عليهم التواني . وأن يرتبهم في المسير ليعرف كل منزله ويألف مكانه اذا أناخوا في بلد . وأن يرفق بهم في المسير حتى لا يعجز عنه ضعيفهم ولا يضل عنه منقطعهم . وأن يسلك بهم أوضح الطرق وأخصبها . ويتجافى أوعرها وأجدبها . وأن يرتاد لهم المياه إذا قلت والمراعى إذا انقطعت ، وأن يحرسهم إذا نزلوا ويحوطهم إذا رحلوا . وأن يمنع عنهم من يصدِّم عن المسير بجهد لا مجال . وأن يصلح بين المتشاجرين لأنهم يكونون تحت ولايته كأهل المدينة تحت ولاية رئيسهم . وأن يؤدب خانتهم ويلزم الناس آدابهم . وأن يراعى فوات الوقت فلا يُخشى عليهم ضيقه

(١) هو من أبواب بغداد (٢) المسعودى ٥٦: ٢ (٣) الأغانى ٩: ٦٤

(٤) أبو الفداء ١: ١٥٧

لأنهم إذا لم يصلوا عَرَفة في يوم عَرَفة ما بين زوال الشمس إلى طلوع الفجر فقد فاتهم الحج^(١)

ولما صارت الشمس على ارتفاع قامة وقد غصت بالناس المواقف وضاعت بهم الساعات ضرب البوق إيذاناً بركوب الخليفة، ثم لم يلبث أن أقبل مرتفعاً على فيل أبيض قد استرسلت عليه الفضة^(٢) في الحلية الثقيلة، وهو جالس في هودج^(٣) منزل بالأصداق اللامعة، وعلى القبة أستار من الديباج يتخللها رسوم من الذهب، وفي يده قضيب الخلافة وفي الأخرى الخاتم، وعليه جبة وشى^(٤) من فوقها برودة خضراء للنبي صلى الله عليه وسلم وهي غير البردة التي كانت للملك بنى أمية يلقونها على أكتافهم في جلوسهم وركوبهم، لأنها فقّدت بفقدان الخلافة منهم، وكان قد اشتراها معاوية من آل زهير بن أبي سلمى بأربعين ألف درهم،^(٥) وإنما هذه البردة هي التي أعطاها النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الأبلّة لتبقى عندهم بركة، فاشتراها أبو جعفر بثلاثمائة دينار^(٦) واتخذها في شعار الخلافة موضع البردة التي كانت عند الأمويين. وأمّا الفيّلة فانه لم يسبق أحد من ملوك العرب إلى اتخاذها في المواكب، وقد أخبرني نصير ذلك الخادم الذي مضى في هذه الرسالة ذكره أنه إنما اتخذها مركباً له لما كان من تعظيم الملوك السالفة إياها واقتنائهم لها وإعدادها للحروب والزينة في الأعياد وغيرها، إذ كانت أوطأ مراكب الملوك وأمهدها^(٧). وكان يصحب أبا جعفر جماعة من

(١) الماوردي ١٨٧ (٢) المقدمة ١٤ (٣) الكشكول (٤) كذ
في العقد الفريد ١٥٦: ٣ (٥) أبو الفداء ١٥٦: ١ (٦) السيوطي
(٧) المسعودي ١٨٥: ١

الأمراء ورجال بيت الخلافة، ووراءهم الأبل التي يظفنها حريمه وأهل بيته وفيهم موسى بن المهدي حاجاً،^(١) ومعهم حرس خاص بهم يحملون الرايات السود.

فلما وصل موكبهم إلى موقف الحجاج ارتفعت أصواتهم بالدعاء وعلوا ضجيجهم بالتكبير والتهليل فكان الواقف يستشعر من عزة الإسلام ما لا يخالج النفس أعظم منه، إذ ليس من فروض العبادة ما تظهر فيه أبهة الدولة غير حج البيت الحرام، فلما وقف الأمرء والمظماء إلى وداع الخليفة أوصاهم بالسهر على الرعية،^(٢) وأن يسألوا الله له النعمة ويوفقه ويُلهمه الرأفة بهم. ثم إنه عزم على ولي العهد أن يصحبه إلى قصر عبدويه على مسيرة يومين^(٣) من الحضرة لتم له الخلوة به على انفراد، إذ كان يحسب من هذا الموسم إتيان ما لامرء له، وقد كان يرى في منامه كأن نجوماً تهوى من السماء^(٤) فيتشام من ذلك. فلما نفيخ في البوق إيذاناً بالنفير زحف الحجاج كالبحر المتلاطم الأبواب. كأن سفنه الركب. وشروعها الظلل المرفوعة والقباب. وفي مقدمتهم هودج الخليفة قد لمع ذهبه كأن الشمس ترسل إلى الناس نوراً من جلال الخلافة.

ولما كان بعد ذلك عاد المهدي إلى الحضرة وشرع في مباشرة الأحكام على الوجه الذي يريده أبوه، حتى صرنا ونحن اليوم في ولايته أشبه بنا في ولاية أبيه إلا فيما يصير إلينا من العطاء الذي لم تعود من أبي جعفر، وأما ما سوى ذلك من أمور السياسة فلم يكن له إلا أن يقتنى فيها أثره،

(١) ابن الأثير ٦: ١٣ (٢) السيوطي (٣) أبو الفرج ٢٢٠

(٤) ابن الأثير ٦: ٦

وقد أوصاه وهو يودعه في قصر عبدويه الوصية التي هي من أحسن ما أوصى الملوكُ به أولادهم في السياسة ، بدأ فيها بتحريضه^(١) على سَكْنِ الزُّوراءِ والألّ يستبدل بها غيرها ، وأن يُظهر كرامة أهل بيته^(٢) ويُحسن إلى مواليه ويستكثر منهم ولا سيما أهل خُرَاسانِ إذ كانوا شيعتهم وأنصارهم ومن لا تخرج محبتهم من قلوبهم^(٣) . والألّ يستعين بأحد من بني سُلَيمِ (خوفاً من ميلهم مع أهل البيت) ، وأن يحفظ النبي صلى الله عليه وسلم في أمته ويلزم حدود الله والآدميين ويعف عن البغى الذي لا حاجة به إليه مع ما خلفه له من المال ، وأن يشحن الثغور ويضبط الأطراف ويُعدّ الكراع والرجال ويسيء الظن بالعمّال ، والألّ يُدخل النساء في أمره^(٤) ولا ينام إلّا وهو مستيقظ إلى آخر ما أطلال به في هذه الوصية التي ذهبت مثلاً بين وصايا الملوك .

في ذكر من لقيته من الشعراء

يُحسُنُ بي في ختام هذه الرسالة ، أن أذكر لك عن الشعراء الذين زهت بهم دولةُ أبي جعفر ما ورد على الخاطر الفاتر ، ولكن بايجاز يدلُّ على موضعهم من الإجادة في مذاهبهم ، دون إطّباب ينتهي إلى ما لا تسعه الصحف من ذكر أبياتهم ونواديرهم . فأبدأ منهم بذكر بشار بن بُرد البصرى وهو ضرير قد لقيته في مجالس البرامكة^(٥) لأول قدومي إلى الزُّوراء وكان خالد أعزه الله قد أحب أن يُطلق على اسم الزائر ويُبطل عنى اسم

(١) ابن الاثير ٦ : ٧ وأبو الفداء ٢ : ٧ (٢) أبو الفرج ٢٢٠ (٣)

العقد الفريد (٤) الفخرى ٤٨ (٥) الأغاني ٣ : ٣٦

السائل الذي كان يُنعت به الغرباء في ذلك الوقت^(١) لقوله لى إني والله لأحب اسم السائل إلا لطلاب الاحسان، وأرفع قدر الكريم عن أن يُسمى به أمثال هؤلاء المؤمنين، لأن فيهم الأحرار والأشراف ومن لعله خير ممن يقصد وأفضل أدباً ولكننا نسيمهم الزوار، فوجد بشار لنفسه نصيباً من كلام الوزير فأطلق لسانه في الانشاد بما دل على سرعة خاطره إلى النظم وسرعة تصرفه في فنون الشعر.

وقد رَوَيْتُ لبشار هذا الشاعر نحواً من مائة قصيدة ورأيت له في أكثرها ابتداء يرفعه إلى مساماة المقدمين من شعراء العرب، فلقد سمعت من لا أحصى من الرواة يقولون أحسنُ الناسُ ابتداءً في الجاهلية امرؤ القَيْسِ حيث يقول (ألا عِمُّ صباحاً أيها الطللُ البالي) وحيث يقول (قفا نبك من ذِكري حبيب ومنزل) وفي الإسلام القطاميُّ حيث يقول (إنَّا محيوك فاسلم أيها الطللُ) ومن المسلمين بشارٌ حيث يقول .

أبى طلل بالجزع أن يتكلما وماذا عليه لو أجاب متياً
وبالجزع آثارٌ بقين وباللوى ملاعبٌ لا يُعرفن الا توهُما
ووجدت له من جمال التشبيه ما يعجز البُصراء عن الاتيان بأفضل منه
وفي قوله .

كأنَّ مَنَارَ التَّعْقِ فَوْقَ رِءُوسِنَا وَأَسْيَافِنَا لَيْلَ تَهَاوَى كَوَاكِبِ
سَمَوِّ لَمْ يَعْطِ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَلَا الْمُتَأَخِّرِينَ، وَهَذَا مِنَ الْغَرِيبِ الَّذِي
لَمْ يُسْمَعْ بِمِثْلِهِ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَمِيَانِ لِأَنَّ قَوْلَهُمْ مُنْحَصِرٌ فِي الزُّهْدِ وَالْمَدِيحِ
وَالهَجَاءِ وَمَا يَتَصَرَّفُونَ بِهِ مِنْ أَبْوَابِهَا، بِخِلَافِ هَذَا الشَّاعِرِ فَانْه يَتَوَسَّعُ مِنْهَا

إلى سائر المذاهب من غير أن يقع في الانحطاط الذي لا يؤمن على من
يُدخل نفسه فيما هو غريب عنه، وكان المتبادر إلى العقل أن يكون بعيداً
عن تصور الحسن ولكنه أغزل الشعراء^(١) حيث يقول .

أنا واللهِ أَشهى سحرَ عَيْنِكَ وَأخشى مصارعَ العِشاقِ
وهذا أحسبه من المواهب الطبيعية والمَلَكَاتِ النفسانية، ولذلك أقدمه
على جميع الشعراء من هذا الوجه الذي يُجَلِّه عن التكلف ولا أجد فيه من
انتقادِ عَيْبٍ^(٢) به شعره إلا استرساله في الهجاء واختلاقه بعضاً من الألفاظ
التي يُحتاج إليها لقيام آياته على القافية من غير أن ترد في لغات العرب .
ولقيت من الشعراء المقدمين مروان بن أبي حفصة وهو منقطع في
شعره إلى مديح معن بن زائدة^(٣) لأنه كفاه مؤونة الاستعطاء من غيره، ولما
أتى في بعض مديحه له على ذكر بلائه في حرب الرواندية بقوله .

مازلت يوم الهاشمية مُعلنا بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت وقاه من وقع كل مُهنّدٍ وِسنانِ
أعطاه مائة ألف درهم وذلك أعظم ما أعطى الملوك من الجوائز، حتى إن
أبا جعفر لما علم بذلك أكبره وقال في سبيل التعجب من سماحة معن «لله
دره من أعرابي ما أهون عليه ما يعزُّ على الرجال وأهل الحرم»^(٤)

وقد انتهت بلاغة هذا الشاعر إلى القصيدة اللامية التي يقول فيها
مادحاً هذا الأمير .

(١) الأغانى ٦: ٤٩ وابن خلكان ١: ١٢٥ (٢) الأغانى ٣: ٤١ و ٥٣
و ٧٣ وابن خلكان ٢: ٢٥٢ وابن الاثير ٦: ٣٧ (٣) الأغانى ٩: ٤٤
(٤) المسعودى ٢: ١٨٣ والأغانى ٩: ٤٤ وابن خلكان ٢: ١٦٠ والمستطرف ١: ٧٣

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم
هم يمنعون الجار حتى كأنما
أسود لهم في غيل خفان أشبل
لجارهم بين السما كين منزل
إلى أن يقول .

تجنب لا في القول حتى كأنه
تشابه يوماء علينا فاشكلا
حرام عليه قول لا حين يسأل
فأنحن ندرى أى يوميه أفضل
وما منهما الا أغر محجل
ولكنى سمعت من يقول إنه رفعها بعد حوّل كامل^(١) فقالها في أربعة
أشهر واتخلها في أربعة وعرضها في أربعة فجاءت كأنها السحر الحلال^(٢)
يعجز عن مثلها الشعراء ، ولكن هذا يدل على أن علمه أكثر من عقله وأن
الشعر عنده صناعة ينال نفسه منها عناية شديدة، وإنما يحب من الشعراء سرعة
الخطار إلى النظم كمثل ما نعلم عن العرب من قولهم الشعر ارتجالا في
المجالس والأسواق. ومن كلام مروان:

طرتك زائرة فحى خيالها
بيضاء تخط بالجمال دلالها^(٣)
قادت فؤادك فاستقاد ومثلها
قاد القلوب إلى الصبا فأمالها

ومن لقيته من شعراء هذه الدولة أبو اسحق اسماعيل « من قبيلة
عَنْزَةَ^(٤) » ويعرف بأبي العتاهية وهو من المطبوعين المجيدين يقول المائة
والمائة والخمسين بيتاً في اليوم الواحد ، حتى ليس إلى الاحاطة بجميع شعره
من سبيل ، وله كلام لم يسبق إليه أحد^(٥) كقوله .

(١) الأغاني ٩ : ٤ (٢) ابن خلكان ٢ : ١٣ (٣) في المعجم الفريد
« بيضاء تنشر بالحياة دلالها ، (٤) الأغاني ٣ : ١٢٧ (٥) الأغاني والعقد

الناس في غفلاتهم ورحى المنية تطحن

وله من بعض كلام^(١)

لا تأمن الدنيا على غدرها كم غدرت قبلُ بأمثالها
أجمعت الناس على ذمها وما أرى منهم لها تاركا
وهو يأخذ في ذلك على أسلوب سهل يروم أن تفهمه العامة وترضى
به الخاصة وإن كان منحطاً عن لغة الأولين في فصاحة الألفاظ، وتصرفه في
الشعر مقصور على وصف الآخرة^(٢) ولم أحفظ له من المديح غير يبتين
قالهما في عمرو بن العلاء .

إن المطايا تشتكيك لأنها قطعت إليك بسابسا ورمالا
فاذا وردن بنا ورددن خفافا واذا صدرن بنا صدرن ثقلا
وهذا أحسن ما يقال في امتداح الكريم ، إذ لا يخفى أن
وراءه من المديح ما يترك البلاد والعباد والحيوانات المعجم ناطقةً بما له
من الجميل .

ولقيت منهم أبا دُلامة زَنَد بن الجَوْن وهو من الشعراء المجيدين
لكنه قد أضع شعره في استعطاء أبي جعفر وهو بمكانه من الامسك كما
علمت وقد قال في الشاء عليه .

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قومٍ ل قيل اقعِدوا يا آل عباس
ثم ارتقوا في شعاع الشمس كلُّكم إلى السماء فأنتم اكرم الناس
وهذا كلام يسمو به إلى جمال الشعر ويملك القول بما أودعه من وصف
السعادة التي صورها محفوفة بالنور ولكن قد ضاع تأثيره في النفوس بعد

المدوح عن محاسن الكرم . وقد جدبت آيات هذا حلاوة بالخلاعة
كما أنى وجدته يتوسع فيها إلى المجون^(١) وكثيراً ما كنت ألقاه في مجالس
المهالبة يلتمس نصيبه من عطائهم بما يتصرف به من الهزل والمزاح .
ومن الشعراء المجيدين محمد بن المولى الأعرابي لقيته في مجالس المهالبة
مرة واحدة وقد قصدهم من البادية وقال فيهم المدائح الرنانة فأجزلوا
عطيته من المال وقد حفظت له من جملة آيات يقولها في مديح رَوْح بن
حاتم من أمرائهم^(٢) .

إني لأرجو إن لقيتك سالماً ألا أعالج بمدك الأسفارا
وكان روح عند ما أنشده إياه قد غلبته الأريحية فأمر بافراغ المال
عليه حتى تثقل به فقلت للأمير ما أنت إلا من يقول فيه زهير .
تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله
فقال والله لأن أعطى أحب إلي من أن أمدح . ولابن المولى كلام
يقرب أن يكون مثل أقوال الجاهليين ، لمقامه في مواضعهم من البادية
بعيداً عن حضارة الأمصار ومن شعره في النسيب .

أحن إلى ليلي وقد شطت النوى بليلي كما حن اليراع المثقّب
تقربت ليلي كي تُثيبَ فزادني بعداً على بمد إليها التقرب
(وقوله)

وأبكي فلا ليلي بكت من صباية إلى ولا ليلي لذي الود تبذل
وكان الحسن بن زيد رضى الله عنه ، وهو عامل على المدينة^(٣) ، قد

(١) ابن خلكان ١ : ٢٧١ والأغاني ٩ : ١٣٢ والمستطرف ٢ : ٤ والشريشي

٢٦ : ٢ (٢) الأغاني ٣ : ٩٠ (٣) ابن الأثير ٥ : ٢٤٣

دعاه وأغظَ له ، وقال أَتَشَبَّ في حَرَمِ المسلمين وتُشد ذلك في المحافل والمساجد ظاهراً؟ فقال امرأتى طالق ثلاثاً إن كانت ليلى إلا قوسى هذه ذكرتها على سبيل التشبيب ، لأن القريض لا يحسن إلا بالنسب . على أنى وجدت شعره إلى فصاحة البداوة أقرب منه إلى حلاوة الحضارة وفي قوله .

سلا دار ليلي هل تُبينُ فتنطِقُ وأنى تردّ القولَ يبداءُ سَمَدَقُ
عفتها الرياح الدامسات مع البلي بأذيالها والرائح المتعبق
بكل شأيب من الماء خلفها شأيبُ ماء مُزنها مُتَالِقُ

ما يبعد تناوله على سكان الأمصار الذين يقطع عهدهم بمحاضرة أهل البادية ، وإنما يُدخلون في لسانهم كلام الشوكة^(١) وألفاظ الأعاجم الذين يخاطبونهم في أسفارهم وتجاراتهم ، حتى تصبح لغتهم في أشد المباينة للسان العرب . وممن لقيته من الشعراء المجيدين السيد الحِميرى ، وهو من الواقفية القائلين بالامام المنتظر ،^(٢) يأتى في شعره على غرضه في السياسة ، ويفرط في سب أصحاب النبي^(٣) صلى الله عليه وسلم ممن كان يرغب عن آل البيت ، وربما وقع عليه من الناس تجافٍ عن شعره من هذا الجنس ، إلا أنه ليس لأحد من الشعراء ماله من عذوبة الألفاظ ، وجودة السبك ، ورونق الشعر وطلاوته . وقد جمعتى وإياه إلى هذا اليوم أكثر من مجلس ، ووجدته حسن الكلام جميل الخطاب ، إذا تحدث بين القوم أعطى

(١) يقول في الأغانى ٣ : ١٧٣ أن الألفاظ السوقية لاتمنع أن تكون القصيدة

جيدة (٢) العقد الفريد ١ : ٢٦٦ والمقدمة ١٧٣ وذكره المسعودى ٢ : ٨٠ وسُمي

شيخته بالكيسانية (٣) أبو الفداء ٢ : ١٥

كل رجل في مجلسه نصيبه من حديثه،^(١) وله في النسب كلام رقيق فمن ذلك قوله:

ولما رأيتني خشيَةَ البَيْنِ مُوجِعًا أَكْفَكِ مِنْ أَدْمَعَا يَبِضْهَا دَرَرُ
أشارت بأطراف اليَدِ وَدَمْعُهَا كَنظْمِ مُجَانِ خَانَةِ السَّلَكِ فَانْتَرَتْ
ومن الشعراء المقدمين أشجعُ بنُ عمرو السُّلَمِيُّ،^(٢) وقد نزل الشعرُ
في صدره مَوْهَبَةً من الله، فاتمضت به قَيْسٌ لذلك، إذ لم يكن بها في
الاسلام شاعر قبله، وإنما كان الشعر في ربيعة واليمن، فلما نجم أشجع وقال
الشعر افتخرت به قيسٌ على العرب،^(٣) ومما أستحسنه من نظمه سهولةُ
القول التي لا يعانى إلى البراءة فيها تكلفاً، وقد حفِظتُ له في مديح ولى
المهد بيتين من جيد الشعر وهما قوله^(٤)

وعلى عدوك يا ابن عم محمد رَصْدَانِ ضَوْءِ الصَّبْحِ وَالْإِظْلَامِ
فاذا تذبَّه رُغْتُهُ وَإِذَا غَفَا سَلَّتْ عَلَيْهِ سَيُوفُكَ الْأَحْلَامِ

هذا ما أذكره عن شعراء هذه الدولة بوجه الاختصار، وقد رأيتهم
يتسابقون إلى ابتكار المعاني الحسان من غير أن ينتحلوا مذاهب من تقدمهم
في عصور الجاهلية، إلا فيما كان أقلَّ من النادر^(٥)، ولو رأينا لهم ما سبقوا
إليه ما صحَّ أن تهتمَّهم بالاتحال، لأن العقول قد تتوافق وتتوارد، وإن
كان المتقدمون من الجاهلية أشرفَ منهم لفظاً فانهم لألطفَ منهم صنفاً
وأكثر من المعاني حظاً. وهوؤلاء هم أشعر العرب قد اجتمعوا في الزوراء

(١) الأغانى ٣: ٧ (٢) الأغانى ١٥: ١٠٨ (٣) الأغانى ١٧: ٣٠

(٤) البیتان قیلا فی هرون الرشید (٥) أنظر ابن خلكان ١: ١٠٢ والأغانى

إلا ابن هزيمة وسلماً الخاسر، وكلاهما شاعرٌ مجيدٌ أيضاً إلا أن أبياتهما لم تصل إلى ، فلم أعلق أخبارهما في هذا الكتاب .
وقد كتبت هذه الرسالة في مُنتصفِ ذى الحِجَّةِ من السنة الثانية والخمسين بعد المائة من هجرة نبينا المكرم ، والله المستولُ في توفيقنا إلى السَّداد ، وهدايتنا إلى الرشاد : بمنه تعالى وكرمه .

الربانة الرابعة

جلوس المهديّ على دست الخلافة

أفتحُ هذه الرسالة إليك بذكر جلوس المهديّ على دَسْتِ الخلافة عند وصول الخبر بوفاة أبي جعفر ، وقد كان لذلك يوم عظيم في الحضرة والأسلام كله ، لأن العقلاء من أهل السياسة كانوا يرون زوال الخلافة عن وُدِّ العباس إلى الأئمة من أهل البيت وتعذر مصيرها إلى المهديّ، والمشايخ من أهل هاشم حاضرون ، فجرى الأمر على خلاف المظنون بحيلة علمتها من البرامكة سرّاً لم تنكشف للناس إلى هذا اليوم . وذلك أنه لما أودى أبو جعفر - غفر الله له - كتم الربيع موته إلى الصباح عمن كان معه في الحج ، واستدعى عيسى بن عليّ عمه وعيسى بن موسى وليّ العهد بعد المهديّ وجماعة من القواد والأمرء ، وتقدم إليهم بأمره - فيما كان يزعم - أن يجددوا البيعة لابنه من غير أن يعلمهم بوفاته ، فلم يتجرأ أحد على مخالفة الأمر ، ظناً منهم أنه صادر من السلطان . ولو أنهم علموا بوفاته